

عن البدو والمشردين :

التشرد الفردي وسرديات الوطن كمكان

من مجلة البيئة والتخطيط: المجتمع والفضاء، المجلد 18 (2000): 737-759

جون ماي

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحررين

من المبالغة القول إن الأدب والفن الغربيين لطالما سادا ميلاً لإضفاء طابع رومانسي على الحياة "على الطريق". ففي نهاية المطاف، تزخر التقاليد الثقافية الغربية بأساطير وقصص عن الحج، والمنفى، والشتات، والترحال. من طرد آدم وحواء من الجنة، وتيه إبراهيم، وأوديسيوس لهوميروس، إلى دين وسال لجاك كيرواك، وثيلما ولويس لريديلي سكوت - لطالما كان التنقل جزءاً من أساطيرنا عن الخطيئة، والشفاء، والفداء، والعار، والحرية. وبينما ليس من المستغرب بالضرورة أن يُركز جغرافيو الثقافة تقليدياً على التعلق العضوي القائم على المكان، وليس على التنقل، بين الناس والأرض، إلا أنه من اللافت للنظر أن عنصرًا محوريًا مثل التنقل في الثقافة الغربية لم يحتل مكانة بارزة في تقاليد هذا التخصص. وهذا، بالطبع، يتغير، كما يوضح هذا الجزء من "القارئ". ولكن في ظل الحماس المُتبني للتنقل الموجود حاليًا في النظرية الغربية (الذي نوقش، على سبيل المثال، في كريسويل)، يُحذرنا من تجنب ذلك النوع من الرومانسية الذي دفع ثيلما ولويس إلى حافة الهاوية في لهيب مجد انتحاري.

إن الحذر من هذا النوع من الرومانسية - من تطهير الحج، من أجل حرية "الطريق المفتوح" - هو ما يُثري دراسة جون ماي لتاريخ حياة الرجال المشردين في جنوب إنجلترا. تشير أبحاث ماي إلى أنه حتى لا نُضفي طابعًا رومانسيًا على السفر، فإن الرغبة في تأسيس منزل وما يشبه الشعور العضوي بالمكان تظل قوية للغاية. وفي طرح هذه الحجة، يسعى ماي أيضًا إلى توسيع نطاق معنى التشرد، من التركيز الضيق على عدم وجود مسكن إلى معنى أوسع وهو الشعور بالغربة. وكما يقول: "قد يكون من المفيد توسيع نطاق عد التشرد كغياب المنزل كمسكن ليأخذ في الحسبان مشاعر غياب المنزل كمكان". ويجد ماي أن الرجال المشردين الذين يُجري معهم مقابلات "جامدون نسبيًا"، وأنهم لا يفكرون عادةً في حياتهم بقدر "التشرد" نفسه وبحتمهم المستمر عن مكان جديد للاستقرار فيه.

تشير هذه النتيجة بعض الأسئلة الأوسع التي تم التطرق إليها بطرق مختلفة في هذا الجزء من "القارئ". هل ينتقل المكان؟ هل يمكن للمرء أن يكون "في وطنه" أثناء السفر؟ بينما يُشير بحث ماي إلى عكس ذلك، تظل هذه الأسئلة مطروحة على الأجندة النظرية لكثير من الأعمال في دراسات التنقل. على سبيل المثال، يشير جون أوري في كتابه "علم الاجتماع ما وراء المجتمعات" (2000) إلى وجود مجموعة متنوعة من طرق السكن، و"جميعها تقريبًا تنطوي على علاقات معقدة بين الانتماء والسفر، داخل حدود المجتمعات الوطنية وخارجها. ويمكن القول بالفعل إن الناس يسكنون في تنقلات مختلفة؛ إذ يكتب بيل هوكس: "لم يعد الوطن مكانًا واحدًا، إنه مواقع". ويشير جيمس كليفورد إلى الحاجة إلى تصور "السكن في السفر". وفي مثال أكثر تجريبية يثير العديد من الأسئلة الإضافية حول السلطة، يشرح يان هايرونغ ("الحكم الليبرالي الجديد والإنسانية الجديدة: تنظيم تدفق السوزي / القيمة من خلال شبكات توظيف العمالة"، مجلة الثقافة لاحظ أنثروبولوجيا (18، 2003) أن المدينة في الصين - حيث يسافر ملايين المهاجرين الريفيين بحثًا عن

عمل - تعدها الدولة "جامعة اجتماعية شاملة" (شيهوي تسونغه داكسو) حيث يمكن لملايين الفلاحين الذهاب إليها لتطوير سوزي ["جودة"] دون أي تكلفة على الدولة ، ودون الحاجة إلى أي استثمار"! .
جون ماي أستاذ الجغرافيا في جامعة كوين ماري ، جامعة لندن ، حيث يُجري أبحاثاً حول الجغرافيا الاجتماعية والثقافية للمدن ، والعمالة المهاجرة في المدن العالمية ، والتشرد . شارك ماي في تحرير العديد من الكتب ، بما في ذلك "جغرافية الثقافة في الممارسة" (2003) و"الزمان والمكان : جغرافيات الزمان" (2001) ، كما كتب العديد من المقالات حول التشرد والعولمة وهوية المكان . وهو أحد أبرز الباحثين في قضية التشرد ، وهويات العمال المهاجرين ، وتوفير الخدمات للمشردين والعمال المهاجرين .

مقدمة

يُجبر المشردون على التنقل المستمر ، ليس لأنهم ذاهبون إلى مكان ما ، بل لأنهم لا يملكون مكاناً يذهبون إليه . فالذهاب إلى اللا مكان هو في الوقت نفسه أن تكون في اللا مكان : فالتشرد ليس مجرد أن تكون بلا مأوى ، بل هو ، بشكل عام ، بلا مكان . وعلى عكس التنقل من مكان إلى آخر عبر السفر أو الهجرة ، فإن التنقل المتنقل للمشردين هو نمط من الحركة يتميز بحالة اللامكان . (سميرة كواش ، الجسد المشرّد ، ١٩٩٨) . في إطار الأدبيات سريعة التطور حول التشرد ، بدأ الاهتمام ينصب على تجارب المشردين الشخصية مع التشرد ، وبالتالي على فهمهم للوطن .

مع ملاحظة الطرق المتنوعة التي يعبر بها أولئك الذين هم حالياً "بلا مأوى" عن شعورهم بـ "الوطن" ، والظروف المتنوعة التي تُشكل فهمهم له ، إلا أن هذا العمل يقتصر في معظمه على دراسة تصورات المشردين لما يمكن تسميته "الوطن كمسكن" . ومع ذلك ، كما يُذكرنا كاواش ، فإن "التشرد ليس مجرد فقدان مأوى ، بل هو ، بشكل عام ، فقدان مكان" . وسواءً نظرنا إلى المناطق الجغرافية الدقيقة للمشردين في المناطق الحضرية ، أو هجرات الباحثين عن عمل أو سكن على نطاق أوسع ، أو دورات الترحال لمن يتنقلون في "بيوت الشباب" ، أو تنقلات الساعين ببساطة إلى الهروب من الظروف الأوسع التي عجلت بفقدان منازلهم ، فمن الواضح أن تجربة التشرد لا يمكن النظر إليها بمعزل عن تجربة التنقل - بأنواعها ومقاييسها المتنوعة. تؤثر هذه التنقلات بوضوح على تجارب الشخص اليومية مع التشرد بطرق مختلفة . ولكن مع تنقل المشردين داخل الأماكن وبينها وعبرها - أحياناً بدافع الضرورة ، وأحياناً أخرى "باختيارهم" - يجب أن تؤثر هذه التنقلات أيضاً على أي تعبيرات لاحقة عن شعور أوسع بالوطن ، ليس فقط كمسكن ، بل كمكان .
بالاعتماد على نهج تاريخ الحياة المُعاد بناؤه ، استكشف مفهوم "الوطن كمكان" الذي عبر عنه رجال يعيشون في مأوى ليلي ونزل في بلدة كبيرة على الساحل الجنوبي لإنجلترا . واستناداً إلى العمل الذي استكشف تنقلات هؤلاء الرجال ببعض التفصيل ، أضع فهم كل مشارك لمفهوم "الوطن كمكان" ضمن السياق الأوسع للتنقل الذي ميّز مسيرته المهنية كشخص بلا مأوى . بدلاً من التركيز على نمط أو تجربة هذا التنقل ، ينصب التركيز الأساسي لهذه الورقة على دراسة الطريقة التي يُعبر بها أولئك الذين شملت تجربة التشرد درجات متفاوتة من التنقل بين الأماكن عن هذا الشعور الأوسع بالوطن . بدراسة تجارب هؤلاء الرجال ، تُحدد أربع روايات عن الوطن كمكان ، تتعلق بتجارب "النازحين" ، و"الحنين إلى الوطن" ، وتجارب أولئك الذين يُعبرون عن "جغرافية طيفية" ، وتجارب "البدو الجدد" .

النزوح (أو التهجير)

على النقيض من أولئك الذين يعدون المسكن أقل من السكان المقيمين فيه بحكم حياة التنقل الطويلة والواسعة النطاق ، فإن التسلسلات السيرية التي رواها الرجال الذين تمت مقابلتهم هنا تشير إلى أن نسبة كبيرة من أولئك الذين يستخدمون الملاجئ الليلية والمساكن في الواقع ، المشردون غير قادرين على الحركة نسبيًا . هذا لا يعني أن التشرد الفردي يجب عده "ظاهرة محلية" . بل على الرغم من أن غالبية المشاركين قد انتقلوا بالفعل إلى المدينة التي أجريت فيها الدراسة بعد أن أصبحوا (ظاهريًا) بلا مأوى في مكان آخر ، إلا أن هذه الخطوة كانت بالنسبة للكثيرين واحدة من المرات القليلة ، إن لم تكن الأولى ، التي ابتعدوا فيها عن الأماكن التي قضوا فيها الجزء الأكبر من حياتهم .

وبعيدًا عن التنقل الواسع أو غير المعتاد ، كشفت سير هؤلاء الرجال عن مستويات مماثلة جدًا من التنقل لتلك الموجودة في دراسات العاطلين عن العمل لفترة طويلة ، وهي فئة أقل تنقلًا بكثير على مدار الحياة من الطبقات المهنية أو الإدارية . كما كشفت هذه السير أن معظمهم ليسوا مشردين حديقًا أو لفترة طويلة حقًا . بل إن تاريخهم في السكن والتوظيف ، الذي غلب عليه البطالة المتقطعة أو طويلة الأمد واللجوء إلى مساكن خاصة مستأجرة ، قد عانى الكثيرون منهم من التشرد لفترات طويلة ، وإن كانت قصيرة ، على مر السنين . إن هذا التاريخ من التشرد "المتقطع" - إلى جانب (وإلى حد ما بسبب) الاعتماد المستمر على المساكن الخاصة المستأجرة غير الآمنة في كثير من الأحيان - هو ما يميز تجارب هؤلاء الرجال بوضوح عن تجارب غيرهم من الفقراء والعاطلين عن العمل ، ولكنه يُعقّد أيضًا أي تمييز سهل أو دقيق بين فئة المشردين "الظاهرين" وأولئك الذين يعانون من شكل من أشكال التشرد "الخفي" .

في الواقع ، عند تشردهم ، لجأ هؤلاء الرجال في الماضي إلى الأصدقاء أو الأقارب (في مدنهم الأصلية) في أوقات الأزمات أكثر من لجوءهم إلى شبكة رسمية من خدمات الطوارئ ، ولم يمكثوا إلا في ملاجئ ليلية أو بيوت شبابية أحيانًا ، وغالبًا بعد فترة من النوم في العراء . بالنظر إلى مثل هذه القصص ، ليس من الصعب فهم سبب انتقال الشخص (أخيرًا) عند تشرده (مرة أخرى) ... [على الرغم من أن عددًا من المشاركين أشاروا إلى أن الانتقال في مثل هذه الظروف يعني عدم ترك الكثير خلفهم ، إلا أن قرار المغادرة النهائي بالنسبة للآخرين كان أكثر تعقيدًا ، كما يوضح بيتر ، وهو يروي الفترة التي أعقبت انفصاله عن زوجته : كان هناك أشخاص كان بإمكانهم البقاء معهم في [اسم المكان] ، أعتقد [توقف] كما تعلم ، لو كانت الأمور مختلفة . لكنني لا أرغب حقًا في العودة إلى هناك ، والاعتماد على الناس هناك ... ليس بعد ، على سبيل المثال ... على الرغم من أن أطفاله هناك ... ما هو الوضع ؟ لقد تدهورت الأمور كثيرًا ، ولا تريد حقًا أن يعرف الناس . لأن ... قد يضحك البعض عليه ، وقد ينزعج آخرون . لذا ، هم ، تأتي إلى مكان كهذا - لتخرج من الصورة نوعًا ما . (بيتر ، ٤٤ عامًا ، ٢٤ ديسمبر ١٩٩٧)

تشير تجارب بيتر إلى أن قرار الانتقال من المكان الذي يصبح فيه المرء بلا مأوى غالبًا ما يتشكل بالرغبة في مغادرة المكان بقدر ما يتشكل بالذهاب إلى مكان آخر ، وحتى عندما لا يرتبط صراحةً بالحاجة إلى الهروب من المواقف التي وصفها أولئك الذين يتتبعون تحركات المشردين الأصغر سنًا ، فإن هذا القرار قد يتشكل في المقام الأول بالشعور القوي بالعار المرتبط لدى العديد من المجبيين بتجربة التشرد في الشوارع . في مثل هذه الحالة ، قد يتشكل قرار الانتقال بدوره ليس بالرغبة في الوصول إلى شبكات دعم غير رسمية ، بل بالعكس - الذهاب إلى مكان يصبح فيه التشرد أقل "وضوحًا" .

في الوقت نفسه ، يبدو أنه حتى في الحالات التي انتقل فيها الشخص وحاول الحصول على الدعم من الأصدقاء والأقارب ، كان هذا الدعم غير متاح في كثير من الأحيان - حيث غالبًا ما يجد الناس أصدقاءهم في مواقف مماثلة . أنفسهم ، غير قادرين على إيوائهم لفترة طويلة ، إن وجدوا ، إما بسبب نقص المساحة أو

ضغط مُلاك العقارات ، مما جعل تقديم المساعدة أمرًا صعبًا . بالنسبة لغالبية المُستجيبين ، كان عدم القدرة على إيجاد سكن ، وعدم رغبة مُلاك العقارات في قبول المُستفيدين من الإعانات ، وعدم القدرة على تأمين سرير في ملاجئ ليلية أو فنادق ممتلئة دائمًا تقريبًا ، و وصولهم بلا مأوى إلى مدينة (غريبة) ومحاولة إيجاد طريقهم في شبكة خدمات الطوارئ ، أمرًا صادمًا للغاية . خاصةً لأولئك الذين ليس لديهم خبرة سابقة في النوم في العراء... ولم يتضاءل هذا الشعور بالعزلة والارتباك بمرور الوقت ، حيث وجد الرجال في النهاية مكانًا في أحد ملاجئ المدينة الليلية أو بيوت الشباب .

بدلاً من ذلك ، ومع دوران السكان المستمر، كانت السمة الغالبة على حياة بيوت الشباب بالنسبة لمعظم المُستجيبين هي الوحدة ، كما يوضح وصف ألبرت . عندما سُئل عن الأشخاص الآخرين في بيت الشباب ، أجاب : حسنًا ، لم أواجه أي مشكلة مع أي شخص . أعني ، حيث أنا - في الأعلى هنا - هناك [الاسم] ، إنه رجل لطيف . إنهم بخير هنا . لا أعرف كيف هو الوضع هناك بالطبع [في الطابق السفلي] . لا أعرف حتى أي شخص هناك . أحتفظ بنفسي ، لأكون صادقًا... لطالما وجدتُ أن هذه هي أفضل طريقة . أهتم بشؤوني الخاصة . لا أزجج أحدًا ، لا أحد يزعجني . أعني ، هناك أشخاص أتحدث إليهم ويتحدثون معي . لكن [صمت] لا أزور أي شخص في غرفته أو أي شيء من هذا القبيل . (ألبرت، 56 عامًا، 4 ديسمبر 1997)

ولم يكن هذا الشعور بالعزلة مقتصرًا على الحياة في النزل . بل امتد الأمر إلى تجربة المشاركين في الأماكن الأخرى التي شكلت حياتهم اليومية (مثل مراكز الرعاية النهارية المحلية ومطاعم الحساء) ، والمدينة ككل ، مما جعل ما يمكن وصفه بتجربة "فارغة" للمكان : [المشكلة هي] أن كل من تقابله يكون في الموقف نفسه ... تقابل بعض الرجال ، لكنهم يمرون فقط ، نوعًا ما . لا يوجد شيء محدد معهم... لا أحد سيقول حقًا إن هذا المكان هو موطنه . لأنه ليس... ليس لديك روابط... لا التزامات... لا أحد مستقر هنا... يبدو الأمر وكأن جميع أصدقائي بلا مأوى أيضًا ، كما تعلم.... لذا يمكنهم جميعًا التغيير في الأيام القليلة القادمة... إنهم مجرد معارف في الواقع . (بيتر)

ومن المفارقات ، إذن ، أنه حتى مع انتقال عدد من هؤلاء الرجال على أمل بناء منزل لأنفسهم ، بعد أن فقدوا منازلهم في أماكن أخرى ، كانت نتيجة هذا الانتقال ببساطة توسيع نطاق الشعور بالتشرد كعدم سكن إلى التشرد كعدم وجود مكان . يُعبّر مايكل عن هذا الشعور بالتشرد على أفضل وجه ، حيث تشير تجاربه ربما إلى الشعور بالتشرد (غياب الشعور بالوطن كعدم وجود مكان) أكثر من التشرد ، المُحاور: لماذا تُغادر لندن ؟ مايكل : لا أعرف ، أردت فقط مكانًا جديدًا ، ابتعد عنه ، لقد سئمت منه [صمت طويل] . كما تعلم ، هم ، ربما لم أفكر في الأمر ، لأكون صادقًا... لم أكن أنوي البقاء حيث كنت [في نُزل بعد الانفصال عن زوجته] ، لذلك قلت ، حسنًا ، "لا بد أن يكون أي مكان أفضل من هذا " . المُحاور: إذا لم يكن الانتقال عائقًا بالنسبة لك ؟ مايكل : لا ، لن أقول ذلك... [لم يكن الأمر كما لو أنني] أترك أي شيء خلفي ، أتعلم ؟ أعني ، عليك فقط أن تحزم حقائبك وتنطلق . المحاور: وهل تشعر أن هذه مدينتك الآن ؟ مايكل : [ضحك ساخر] لا أعرف . [توقف] أجل ، أعتقد أنها كذلك - في الوقت الحالي . لكن في نهاية اليوم ، تتحدث دائمًا عن "العودة إلى الوطن" ، أليس كذلك ؟ أعني ، لقد صادقت بعض الأشخاص ، [توقف] كما تعلم ، اذهب لشرب شيء ما وما إلى ذلك . حسنًا، لكن... لا ، لن أسمى هذا المكان موطني... موطن من أتيت منه ، أليس كذلك ؟ (مايكل ، ٣٣ عامًا ، ٤ ديسمبر ١٩٩٧)

الحنين إلى الوطن على الرغم من أن مفهوم (النزوح) أو (التهجير) يُعبّر عن تجربة فقدان ، إلا أنه يفترض ، بحكم تعريفه ، تجربة سابقة للوطن - تجربة تتجاوز حدود الإقامة لتشمل ذلك الشعور الأوسع

بالانتماء الذي يُوصف عادةً بأنه "إحساس بالمكان". بهذا المعنى ، ورغم تشابههما الظاهري ، فإن تجربة (النزوح) أو (التهجير) تختلف تمامًا عن الحنين البسيط إلى الوطن ، الذي وصفه باومان [الحياة في شظايا ، ١٩٩٥] ليس على أنه شوق حنين إلى الوطن ، بل "حلم الانتماء" : حلم يضعه بقوة في زمن "المستقبل". على الرغم من تجربة الشعور بالعزلة نفسه والارتباك الذي وصفه ألبرت وبيتر والآخرين ، فإن مفهوم الحنين إلى الوطن ، وليس (النزوح) ، هو الذي يصف تجارب مجموعة ثانية من المشاركين بشكل أفضل . لهذه التجارب جذورها في (و تشكيل) نمط حركة مختلف تمامًا وتجارب مختلفة تمامًا للتشرد والتنقل والوطن كمكان .

عند سؤاله عما يريده ، كان وصف ديفيد للشعور بالوطن الذي يسعى إليه ، على سبيل المثال ، مألوفًا بشكل محبط للوهلة الأولى فيما يتعلق بنوع السكن الذي ميز حياته وحياة معظم الرجال الذين تمت مقابلتهم هنا ، وفيما يتعلق بالرغبة البسيطة في أي شيء . من الأفضل أن يُرفض بسرعة كونه حلمًا لا يمكن تحقيقه . المُحاور: ماذا تريد ؟ ديفيد : أريد شقة ، لكن لا أستطيع الحصول عليها . أريد شقتي الخاصة ، استقلالي الخاص ؟ المُحاور : وما الذي سيجعله منزلًا ؟ ديفيد : حسنًا ، أشخاص محترمون كبداية . مكان لا يوجد فيه كل ما لديك من سكارى ، حيث يبدأ الناس الشجار طوال الوقت... مكان محترم [ليس مكانًا فيه] ثقب في الجدران ، حيث تفوح رائحة السجاد ، مليء بالسكارى ومدمني المخدرات... وظيفة محترمة... وطائر؟ المُحاور: وهل يهم أين هو؟ ديفيد : لا ، في أي مكان ، حقًا ، لا يهمني. (ديفيد، ٢٢ عامًا، ١٠ ديسمبر ١٩٩٧)

ومع استمراره ، يتضح أن هناك شيئًا آخر مفقودًا في رواية ديفيد . على الرغم من قدرته على التعبير عن شعوره بالوطن كمسكن ، وهو ما يرغب فيه بشدة (حتى لو كانت لديه خبرة سابقة قليلة لتأسيس تلك الرغبة) ، إلا أن هناك في الوقت نفسه شعورًا غريبًا بعدم المكان في وصف ديفيد لمنزله المستقبلي . هذا الشعور بعدم المكان له جذوره في ماضي ديفيد ، وهو يعكس شعورًا بالحنين إلى الوطن لا بالتشرد أو النزوح في مستقبله . نشأ ديفيد في مدينة ساحلية صناعية تقع على بعد مسافة قصيرة على طول الساحل من المدينة التي أُجريت فيها المقابلة . غادر "المنزل" في سن السادسة عشرة لينتقل داخل المدينة نفسها إلى شقة توفرها الخدمات الاجتماعية المحلية . كانت ذكرياته عن الحياة الأسرية المبكرة مشوشة في الواقع ، حيث وجد صعوبة ، على سبيل المثال ، في تذكر أي من إخوته وُضعوا بالفعل في الرعاية بحلول الوقت الذي غادر فيه المنزل .

لكن ذكرياته عن المنطقة التي نشأ فيها كانت أوضح بكثير، والشعور القوي بالإقصاء الذي سيطر على تلك الذكريات : وُلِدْتُ في [اسم المكان] ، إحدى أسوأ مناطق [اسم المكان] . وكان الوضع أشبه بعصابات جميع الشباب من حولي ، من سن أيا كان ، من حوالي ١٤ إلى حوالي ١٨ ، ١٩ ، كانوا يختلطون بالعصابات . إذا لم تنضم إلى عصابة [بهذه شدة] ، كنت تتعرض للمضايقات ، بشكل أساسي . لم يكن ديفيد عضوًا في عصابة قط ، وكان يتعرض للتنمر بشكل متكرر (جزئيًا بسبب حجمه) ، وبعد أن ترك منزله ، غادر المدينة بسرعة ، وانتقل ما لا يقل عن ست مرات خلال السنوات الست التالية . كان عدد من هذه التنقلات ، ظاهريًا على الأقل ، بحثًا عن عمل ، بينما كان البعض الآخر يلتحق ببرامج تدريبية لا تقدم سوى وظائف مؤقتة منخفضة الأجر ، وهي سمة شائعة في حياة الشباب المشردين والعاطلين عن العمل .

في كل مرة انتقل فيها ، وجد ديفيد نفسه أيضًا بلا مأوى ، ينام في العراء لبضع ليالٍ عند وصوله إلى مدينة جديدة قبل أن يجد سريرًا في مأوى ليلي أو نُزُل ، وينتقل من هناك إلى سكن مؤقت أو غرفة في منزل مشترك . ومن الجدير بالذكر أنه بعد فشله في العثور على مكان (لائق) للعيش أو وظيفة ، كان ديفيد يعود بين كل انتقال جديد إلى مسقط رأسه ليجد سكنًا في نُزُل أو غرف نوم مؤقتة تقع في حيهِ القديم أو بالقرب

منه . على الرغم من عدم ارتباط تنقلات ديفيد بجغرافيات دائرة النزل (بقدر ما أوصله عدد من هذه التنقلات إلى أماكن لا يوجد فيها سكن في النزل) ، فقد تم احتواء تنقلاته بالكامل ضمن تلك الشبكة الأوسع من مراكز الرعاية النهارية والنزل ، والمنازل متعددة الإشغال ، والشقق الرخيصة المؤجرة ، والتي تشكل شبكة "الصف المائل" المعاصرة ، حيث انتقل في نمط دوري بين أحياء مماثلة في جميع أنحاء البلاد .

بالنسبة لديفيد ، والمستجيبين الآخرين (معظمهم أصغر سناً) ذوي السير الذاتية المماثلة ، قد يكون من المفيد فهم الشعور بالتشرد الذي يصفه على أنه ناشئ عن شعور بالانفصال ليس فقط عن المجتمع "السائد" ، ولكن عن ثقافة الشباب (الاستهلاكية) السائدة... ومع ذلك ، إذا كان الحنين إلى الوطن ، كما يجادل بومان ، هو "الرغبة في الشعور وكأنك في وطنك ، والتعرف على محيطك والانتماء إليه..." حلم التواجد ، ولو لمرة واحدة ، في المكان ، وليس مجرد التواجد فيه ، هناك طريقة أخرى لفهم شعور التشرد الذي يُعبر عنه ديفيد . هنا ، البحث المستمر عن شعور بالوطن كمكان ، وليس مجرد بحث عن عمل أو حتى عن منزل (كمسكن) ، هو ما يُحرك ديفيد . مُحبطاً باستمرار في هذا البحث ، في كل مرة ينتقل فيها إلى مكان آخر ، فإن البحث نفسه (والذي يضعه في تناقض مع المجموعة الأولى من المستجيبين) له جذوره في الغياب الأصلي لمثل هذه المشاعر تجاه مدينته الأم (التي يعود إليها باستمرار) . مُذكرًا عودته الأخيرة إلى "الوطن" ، على سبيل المثال ، عندما مكث لأكثر من 18 شهرًا بقليل ، مُتنقلاً بين مجموعة متنوعة من النزل والشقق المُجهزة ، يتذكر ديفيد أن : كَوْنْتُ صداقة أو اثنتين ، لكن عدا ذلك - ليس كثيرًا... ما زالوا يأتون إلى هناك ، كما ترى ، إلى [اسم المكان] . [المشكلة] أنني أحب المدينة... [توقف] أنا فقط لا أحب الناس هناك . إنهم فقط ، لا أعرف كيف أشرح ذلك . إنهم فقط - ليسوا ودودين... إن لم يكونوا يسببون مشاكل ، فهم يتجاهلونك .

لعل الجانب الأكثر مأساوية في رواية ديفيد هو أنه ، بسبب حرمانه من هذا الشعور المألوف بالوطن ، يبقى أيضاً غير قادر على الوصول إلى أي بدائل . بينما كان يتحدث بفخر عن معرفته بدائرة النُزُل (ادعاءات لا يدعمها نمط تحركاته) وعن "المراوغات" التي تعلمها لتجاوز المشاكل الأكثر بساطة ، وإن كانت حاسمة ، والمرتبطة ، على سبيل المثال ، بنقل استحقاقات المرء في كل مرة ينتقل فيها ، قد يُقال إن هذه الادعاءات بالمعرفة تتحدث عن رغبة ديفيد في الانتماء ، على الأقل ، إلى تلك المساحات الأخرى التي شكلت حياته على مدى السنوات الست الماضية . ومع ذلك ، في كل مرة يصل فيها إلى مكان غريب ، مضطراً لإيجاد مكان آمن للنوم والتعامل مع مشهد غير مألوف ، تتكرر مشاعر العزلة والارتباك التي وصفها المجموعة الأولى من المجيبين ، مما يُشعر ديفيد بالتشرد هنا أيضاً : [إذا كنت تريد العثور على نُزُل ، فما عليك سوى] رؤية شخص يبدو أشعثاً بعض الشيء... وسؤاله . . لكن المشكلة هي أنك لا تعرف إن كانوا سيستديرون ويطلبون منك إغلاق هاتفك ، أم سيضربونك ، فهل عليك أن تخاطر؟

الجغرافيا الطيفية SPECTRAL GEOGRAPHIES

إن الشعور بالوطن في هذه الأماكن الأخرى هو ما يميز تجارب مجموعة ثالثة من المستجيبين . هؤلاء هم "رجال الطريق" الذين يعتمد شعورهم بالوطن على تلك القدرة على التنقل التي تجعل تجربة الوطن صعبة المنال على ديفيد . وبينما يشقون طريقهم في "دائرة النزل" ، يفترض أن مفهوم الوطن يتخذ شكلاً بديلاً : يُؤقِّره اللقاء العرضي ، وليس المستمر ، مع آخرين يسلكون طرقاً مماثلة . على الرغم من أنها لم تُفحص بعُد بهذه الطريقة ، إلا أن تجارب هؤلاء الرجال قد تُوضع بشكل معقول ضمن عالم البدو ، كما وصفها دولوز وغواتاري [في كتاب "علم الترحال : آلة الحرب" ، 1986] ، حيث يرى دولوز وغواتاري أن شعور البدو بالهوية والوطن لا يكمن في التنقل بين الأماكن أو في مكان مُستقر ، بل في شبكة من محطات الطريق ونقاط

الراحة التي تُشكل رحلاتهم . ولأن تحركاتهم مُتوقعة ودورية ، إذ يعودون بانتظام إلى مجموعة مألوفة من الملاجئ الليلية والنزل ، فقد يُنظر إلى هؤلاء الرجال (على الأقل) على أنهم يُعيدون ترتيب جغرافيا تقليدية للحركة والفضاء والوطن والمكان .

تكمُن الصعوبة في مثل هذه الحجج ، إن لم تكن مُجردة تمامًا ، في أن الروايات التي تستند إليها نادرًا ما تناولت تحركات هؤلاء الرجال أنفسهم بأي تفصيل . ولم يقدموا أي سياق يمكن من خلاله تحديد تحركاتهم ، وأي فهم لاحق للوطن - متجاهلين إلى حد كبير تاريخ الحياة الأوسع لأولئك الذين اتخذوا "حياة الترحال" أو يعملون بالكامل من مصادر ثانوية . كان دون ، وهو مدمن كحول في أواخر الأربعينيات من عمره ، ذو شعر طويل ولحية غير مشدبة ، من بين الرجال الذين تمت مقابلتهم هنا ، هو من ينطبق عليه وصف "الرجل المسافر" . وقد تم تحديده بالفعل على هذا النحو من قبل المقيمين الآخرين (الذين نادرًا ما كان يختلط بهم) وكذلك من قبل موظفي النزل ، وبدا دون نفسه حريصًا على تعزيز هذا التعريف ، حيث كان يروي باستمرار حكايات عن الملاجئ الليلية العديدة والنزل التي أقام فيها على مر السنين . علاوة على ذلك ، على الرغم من أن دون تحدث أيضًا عن إمكانية "الاستقرار" الآن بعد أن "كبر قليلًا" ، وربما حتى تجربة الإقامة في غرفة نوم مشتركة ، إلا أن حديثه كان في أغلب الأحيان يدور حول خطط سفره المستقبلية .

بحلول الوقت الذي أُجريت فيه المقابلة الرسمية ، كانت رحلات دون قد اتخذت طابعًا أسطوريًا ، حيث بدا فهمه للوطن متوافقًا مع هذا النوع من الفهم الذي غالبًا ما يُعبر عنه أولئك الذين لديهم تاريخ طويل من استخدام النزل أو النوم في العراء ، إن لم يكن لديهم أيضًا قدرة كبيرة على الحركة . المحاور: إذا ، عندما قلت سابقًا إنك تعد نفسك بلا مأوى ، فإن ذلك لا يتعلق بما إذا كنت تنام في العراء أو في نزل أو في شقتك . بل يتعلق الأمر في الواقع بما إذا كنت تشعر وكأنك في وطنك ؟ دون : في المنزل ، أجل ، هذا صحيح... الجانب المادي ليس مهمًا... سواء كان لديّ سقف فوق رأسي أو كنت أنام على العشب ، فهو غير مهم . إنه... أمر عاطفي . هل تفهم ما أقصده؟ (دون، 5 ديسمبر 1997) .

ولكن من السابق لأوانه افتراض أن دون يشعر بالوطن على الطريق أو في لقاءاته مع سكان تلك النزل التي يعود إليها بانتظام . فبينما يُوسّع في ملاحظاته السابقة ، على سبيل المثال ، يتضح أن هذه النزل نادرًا ما وفّرت لدون شعورًا بالوطن ، إن وُجد أصلًا ، بل إنه أيضًا لا يحمل أي أوام رومانسية حول الحياة على الطريق : لا أعد هذا منزلًا... لا أعد أيًا من هذه الأماكن منزلًا . الوطن هو المكان الذي تشعر فيه بالراحة النفسية والجسدية . راضٍ ، الوطن هو الرضا... أتفهم ؟ راحة عاطفية ، نوع من الراحة ، حيث لا ترغب بالذهاب إلى أي مكان . حيث يوجد "حيث أريد أن أقضي بقية حياتي هنا" . هذا هو الوطن بالنسبة لي... إنه ذلك الجانب العاطفي . الناس الذين ينتقلون ، يشعرون بتعاسة شديدة ، أتعلم ؟ كان والذي يعلم ذلك ، أتعلم ، حسنًا... إذا هذا كل شيء ، تقريبًا . لقد فهمنا هذا الجزء ، ماذا تريد الآن؟

كان يعود باستمرار إلى برمنغهام في محاولة مُحبطة لإعادة التواصل مع حياة سابقة ، وإلى لندن في محاولة للعثور مجددًا على أولئك الرجال الذين منحوه (لفترة على الأقل) شعورًا بالانتماء ، وإذا كانت تجارب المجموعة الأولى من المستجيبين قد وصفت شعورًا بالنزوح ، وإذا كانت تحركات ديفيد تُعد مدفوعةً بشعور بالحنين إلى الوطن ، فإن تحركات دون قد تُفهم على أنها تُعبر عما يُمكن أن نُسميه "جغرافية طيفية" حيث يعود باستمرار إلى أماكن كانت ذات معنى في السابق ، ولكنها الآن لا تحتوي إلا على أشباح علاقات سابقة

البدو الجدد

على الرغم من أنه يُقدم مثلاً قوياً بشكل غريب لمثل هذه الجغرافيا ، إلا أن دون لم يكن بأي حال من الأحوال الشخص الوحيد الذي يُلخص هذه الأنواع من التجارب . في حالة أحد المجبيين الذين ظلوا مشردين لفترة طويلة ، على سبيل المثال ، قضى معظم الوقت منذ مغادرته البحرية التجارية في تتبع جغرافيات حياة سابقة - متنقلاً بين موانئ بريطانيا الساحلية ، ومتفرغاً للعمل أحياناً على أرصفة السفن . أما بالنسبة لشخص آخر ، فقد قضى عدة سنوات في العراق متنقلاً بين مدينة سياحية تقع على الساحل (حيث وُلد وما يزال أطفاله يعيشون) ومدينة سوق قريبة انتقلت إليها زوجته بعد طلاقهما . ورغم استخدامهم أحياناً للملاجئ الليلية والنزل ، إلا أن "جولة النزل" لم تكن ذات أهمية تُذكر لحياة هؤلاء الرجال ، الذين حُدد نمطها من خلال جغرافية مختلفة تماماً .

جسد مارتن هذه التجارب على أفضل وجه ، إذ تُقرأ سيرته الذاتية كتاريخ مُختصر لحركة مسافري العصر الجديد . بعد أن ترك الرعاية في سن السادسة عشرة ، وقضى بعض الوقت في عدد من دور الشباب المشردين ، أمضى مارتن السنوات الأربع التالية من حياته متنقلاً بين سلسلة من المساكن غير القانونية في منطقة شمال لندن . وكان يعتمد في معيشته على مزيج مما تُشير إليه كارلين [في رواية "جيجسو" عام 1996] بـ "جرائم البقاء" ، والتسول ، والاتجار بالمخدرات ، واستخدام مراكز الإيواء النهارية ومراكز توزيع الحساء . وخلال فترة وجوده في لندن ، تواصل مارتن مع شبكة أوسع من مسافري العصر الجديد والمستوطنين غير القانونيين تمتد عبر البلاد . وعندما أدى استمرار ضغط الشرطة إلى تفريق مشهد المساكن غير القانونية في لندن في نهاية المطاف ، انتقل مارتن وعدد من أصدقائه إلى المدينة حيث أُجريت معه مقابلة لاحقاً - وقد جذبتهم جزئياً شبكة مراكز الإيواء النهارية ومراكز توزيع الحساء الراسخة في المنطقة ، والتي كان لدى عدد منهم خبرة سابقة فيها .

عند وصولهم إلى المدينة ، انضم مارتن وأصدقاؤه بسرعة إلى مجموعة بدأت بالاعتصام على الواجهة البحرية والرصيف احتجاجاً على إعادة تطوير المنطقة ، وانضموا إلى متظاهرين من موقع قريب للمسافرين يقع على بُعد أميال قليلة من المدينة . وعندما فُضّ هذا الموقع أيضاً نتيجةً لضغوط من الشركات المحلية ، انتقل مارتن أولاً إلى شقة صغيرة مطلة على البحر، حتى شعر بالاكْتئاب فاشتري سيارة وبدأ ينتقل بين عدد من مواقع المسافرين التابعة لحركة العصر الجديد في شمال وشرق إنجلترا وويلز، معتمداً في معيشته على معرفته باليوم . مراكز ومطاعم حساء تنتشر في أنحاء مختلفة من البلاد . في النهاية ، أُلقي القبض على مارتن وهو يقود سيارته دون دفع ضرائب أو تأمين . أرسل مارتن أولاً إلى نُزُل بكفالة في شمال إنجلترا ، ثم نُقل ثلاث مرات بموجب أمر قضائي ، وكانت آخر مرة نقلته فيها إلى النُزُل الذي أُجريت فيه المقابلة .

يربط هذا التاريخ بجغرافية معقدة لشبكات معلوماتية تربط عوالم المشردين بعوالم مسافري العصر الجديد وسكان المناطق الحضرية العشوائية ، مما يضمن الوصول إلى الموارد لأفراد مجتمع ممتد عبر الفضاء . ومع ذلك ، بدلاً من توفير حياة من الحركة المستمرة ، فإن الغرض من هذه الشبكات هو توفير إمكانية (إعادة) ترسيخ شعور بالوطن لأولئك (مثل مارتن) الذين يُنظر إليهم دائماً على أنهم "في غير مكانهم" ، والذين يجب عليهم بالتالي التنقل بانتظام إذا أرادوا العثور على ذلك الشعور بالوطن الذي يسعون إليه . وهكذا... لا ينبغي بالضرورة فهم قرار مارتن بالعيش في سيارته ، وتنقله بين هذه الشبكات المتداخلة ، على أنه تعبير عن رغبته في نمط حياة متنقل .

بل على العكس ، بالنسبة لمارتن على الأقل ، لم يأتِ قرار "التنقل" إلا بعد إحباط محاولاته لإنشاء مساحة بديلة للمنزل باستمرار - أولاً في لندن ، ثم على الساحل الجنوبي : لم تكن لدي عائلة قط ، أتعلم ؟...

عشت في دور رعاية... في نُزل.... كان النُّزل جيداً . لكن كانت هناك قيود كثيرة... هذه ليست أماكن يحق لك فيها التمتع بحريتك... لذا كان العيش في مكان غير قانوني متعة... شعرتُ وكأنني في بيتي . كان الناس ودودين للغاية وجعلوني أشعر بالترحيب . إذا أردت أي شيء ، فسيساعدونك . انتقلت ، وفي غضون أسبوع ، في يوم واحد ، كان الأمر كما يلي : "لدينا هذا ، نعرف طريقنا ، سنريك".... شكّلنا نوعاً من المجتمع ، وساعدنا بعضنا البعض....

أنا والآخرين ، خرجنا نتاجر ، ونسرق ، ونأخذ الطعام من سينسيري ، ومن... كنا نضعه كله في صندوق كبير ونطهو وجبة للجميع... وإلا كنا نذهب إلى مراكز تقديم الحساء ،... كان الأمر سهلاً جداً.... لكن في النهاية ، كانت أطول مدة يمكنك البقاء فيها في أي مكان هي بضعة أسابيع . أكثر من ذلك ، والشرطة كانت هناك... كانوا يأتون ، ويطردونك ، ويأخذون أغراضك ، ويعتقلونك... مع اللوائح الجديدة ، كان هناك جو مختلف ، وأصبح من المستحيل العيش دون تصريح . [حدث الشيء نفسه هنا] عندما بدأت الفنادق بالشكوى . اتصلوا بالمجلس وسدوا واجهة الشاليهات فلم تتمكن من الدخول... ثم نزعوا جميع الكابلات فلم تتمكن من استخدام التدفئة أو الطبخ... ثم اتصلوا بالشرطة... [و] اعتقلوا [أي شخص وجدوه].... [لذا في النهاية] كنت أعيش في الجزء الخلفي من سيارتي... أقود دائماً إلى مكان آخر . إلى مراكز الرعاية النهارية ، ورحلات الحساء . تلك كانت حياتي... وقد نزعوها عني . جعلوني أشعر وكأنني قطعة من الحثالة . (مارتن، ٢٣ عاماً، ١٥ ديسمبر ١٩٩٧)

بينما برز لدى كلّ من المشاركين الآخرين شعورٌ بالتشرد نتيجةً لفقدانهم إحساساً بالوطن (مكان)، أو عجزهم عن إيجاده ، أو عدم قدرتهم على إعادة التواصل معه ، فإن أعرق شعورٍ بالتشرد ربما يكون مُخصصاً لمارتن وآخرين مثله ، الذين ، استجابةً للإحباط المستمر من محاولاتهم لبناء مساحة بديلة للوطن في مكانهم ، ينتهي بهم الأمر إلى تجاوز التصورات المعيارية للوطن كمسكن ومكان .

الخلاصات

تشير التسلسلات السيرية التي تُشكل سياق المناقشة هنا إلى أنه على الرغم من أنه لا يمكن عد التشرد الفردي "ظاهرة محلية" ، فإن غالبية من يستخدمون الملاجئ الليلية وبيوت الشباب للمشردين هم في الواقع غير قادرين على الحركة نسبياً . ومع ذلك ، فإن هذا لا يعني أن التشرد يمكن فهمه دون الإشارة إلى مسائل التنقل . بل على الرغم من أن غالبية الرجال الذين تمت مقابلتهم لم ينتقلوا إلا نادراً طوال حياتهم ، إلا أنه عندما انتقلوا أخيراً من المكان الذي فقدوا فيه منازلهم (مؤخراً) ، كان لهذه الحركة تأثير عميق على تجربة التشرد لديهم وعلى أي قدرة لاحقة على استعادة ذلك الشعور بالوطن الذي فقدوه . تشير روايات أشخاص مثل سيمون وألبرت وبيتر ومايكل إلى أنه على الرغم من أن تجربة الانتقال إلى مكان جديد بمجرد التشرد قد تكون مؤلمة للغاية (خاصة لأولئك الذين يُجبرون على النوم في العراء) ، إلا أن مشاعر الارتباك والعزلة تستمر على المدى الطويل حتى بعد أن يصبح الشخص وجد مأوى يصعب التعامل معه في كثير من الأحيان . تُسهّم هذه المشاعر في تجربة ما يُسمى بإحساس "فارغ" بالمكان ، وقد تؤدي، بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا يشعرون بأن وطنهم يقع في مكان آخر ، إلى شعور قوي بالتشرد .

وعلى النقيض من تجارب النازحين ، هناك أولئك الذين تتشكل حياتهم الآن من خلال معالم ما يُسمى "الجغرافيا الطيفية" . وقد أشارت دراسات سابقة إلى أن هؤلاء الرجال ، وهم جزء من مجموعة (متناقضة) من الرجال المُشردين العُزّاب (معظمهم من كبار السن) ، قد يُعَبِّرون من خلال "حياة على الطريق" عن شعور بديل بالوطن ، مُنشأ داخل وبين مساحات "دائرة النزل" . دون إنكار وجود من اختاروا السفر بدلاً من

الاستقرار ، و وجدوا في هذا النمط من الحياة الأكثر تنقلاً شعوراً مختلفاً بالهوية والوطن ، إلا أن روايات دون وغيره من المستجيبين الذين عانوا التشرد لفترة طويلة والذين أجريت معهم المقابلات هنا ، والذين كشفت سيرهم الذاتية عن مهن مماثلة في التشرد ، تشير إلى أن هذه الروايات رومانسية للغاية في أسوأ الأحوال ، وحنين إلى الماضي في أفضل الأحوال .

في الواقع ، على الرغم من كثرة تنقل هؤلاء الرجال ، إلا أن تحركاتهم نادراً ما تبدو متأثرة بمثل هذه الدائرة ، وفي أوصافهم للملاجئ الليلية والنزل وفنادق المبيت والإفطار التي توفر لهم مكاناً للقاءاتهم مع "المعارف" الذين يشاركونهم حياتهم الآن ، **من الصعب العثور على أي شيء يعادل الشعور بالوطن** . بل إن الانطباع الأكثر وضوحاً لدى عودتهم إلى تلك الأماكن هو شعور بالتكرار الحتمي الذي لا ينتهي ، وهم ينتقلون بحثاً مستمراً عن شعور بالوطن والمكان ، ليس مجرد فقدان ، بل (ربما) شعور لا يمكن استعادته .